اليونان
(١)

يبدو أن العلاقات المصرية اليونانية الطاعنة فى القدم منذ آلاف السنين والتى كانت تتجلى فى مظاهر فريدة، مثل إقامة مدينة يونانية كاملة فى مصر خلال القرن السادس قبل ميلاد السيد المسيح، وهى مدينة «نقراطيس» وغيرها من المدن التى كانت تمتزج فيها الحضارتان اليونانية والفرعونية وتنقل أهم مظاهرها إلى البلدين، يبدو أن هذا التراث الحضارى والعلاقات الوطيدة بين البلدين لم تضع هباء بل زادت مع الأيام والسنين وهذا أول انطباع شعرت به خلال زيارتى لمدينة «أثينا» عاصمة الفكر والفلسفة والنور فى التاريخ القديم.

بعد وصولى إلى مطار أثينا مباشرة وبينما كنت أبحث عن رقم تليفون إذا بمواطن يونانى يبتسم لى ويتحدث معى باللغة العربية

بل وبالعامية المصرية.. أنت مصرى؟ أهلًا وسهلًا أنا عشت فى مدينة بورسعيد هل تنتظر أحدًا؟ هل تريد تليفون؟.. تفضل التليفون هناك.. تريد تحويل عملة؟ لماذا؟ لا تشغل بالك إنها مجرد اثنين دراخما اتفضل - الدراخما هى العملة اليونانية والواحدة تقدر بقرش واحد تقريبًا - وسرعان ما تركنى المواطن اليونانى بعد تقديم المساعدة لى، وحتى قبل أن يعرف اسمى، إنه لم يعرف عنى أى شىء سوى أننى مصرى، وكذلك لم أعرف عنه شيئًا سوى أنه يونانى عاش فى مصر وشرب من ماء نيلها وتحدث بلغتها، ودفعه هذا تلقائيًّا إلى مساعدتى، فالصداقة القديمة بين الشعبين، والحضارة المتبادلة بين البلدين ما زال أريجها يلامس الأنوف، عبر السنين.

وطوال إقامتى فى اليونان قابلت عديدًا من المواطنين اليونانيين الذين عاشوا فى مصر فلم يستطيعوا نسيانها ولم تستطع الأيام أن تمحو ذكرياتهم العديدة المختلفة فيها، إنهم ما زالوا يذكرون أين كانوا يقيمون فى الإسكندرية، بورسعيد، القاهرة، حى شبرا، الموسكى، مصر الجديدة رقم كذا، حتى أسماء الحارات، والمحلات التجارية والأشخاص الذين يعيشون فيها، ما زالت عالقة فى أذهانهم ومحفورة فى ذكرياتهم، إنك تقابلهم أيضًا فى كل مكان فى اليونان، فى المطار أو المحلات التجارية أو الأتوبيسات أو على المقاهى الكثيرة المنتشرة فى كل الأرجاء، وسرعان ما يتقدمون

إليك ليعرضوا مساعدتهم بمجرد أن يعرفوا أنك مصرى.

واليونان بلاد جميلة تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى لأوربا وهو موقع استراتيجى هام يطل على كل القارات تقريبًا ويعتبر مركـزًا رئيسيًّا للمواصلات العالمية، وتمتاز اليـونان بـطبيعة رائعـة متنوعـة، فمسـاحتها ١٨٢ ألف كيلو مـتر مـربـع منهـا ١٥٧ ألفًـا فى جسم القارة الأوربية و٢٥ ألفًـا على شكـل جزر فـالجزر تشكـل نسبة ١٩٪ من المسـاحة ويبلغ عـددها أكـثر من ألفى جـزيـرة كبـيرة وصغيرة فى بحر إيجة وبحر يـونيو وغـيرها من البحـار اليونـانية. أمـا شمال اليـونان فهـو أرض جبلية بهـا جبال شـاهقة عمـلاقـة تكسوها الخضرة وتنتشر فيها الأشجار الوارفة، ويبلغ عدد السكان حوالى ١٣ مليون نسمة وهناك ٢,٥ مليون مواطن يونانى يعيشون خارج بلادهم فى أمريكا وألمانيا واستراليا وكندا وانجلترا وهم على صلة وثيقـة بالـوطن الأم مما يجعلهم يسهمـون فى خدمـة وتطويـر بلدهم حتى وهم فى الخارج.

وأثينا هى عاصمة اليونان، مدينة عريقة اكتسبت أمجادًا كثـيرة منذ فجر التـاريخ، وارتبـطت باسمهـا الفلسفة والحضـارة، وعاش فيها أبو الفلسفة سقراط وتلميذاه الشهيران (أفـلاطون) صـاحب الأكاديمية ونظرية المثل، و(أرسطو) صاحب نظرية الوسط الذهبى وغيرهم من الكتاب والفنانين، وقد أخذت المـدينة اسمهـا من ربة الحكمة عند اليـونانيـين القدمـاء.. وتروى لنـا الأساطـير حكايـة

تسمية العاصمة بهذا الاسم، فبعد بنائها منذ آلاف السنين تنافس كل من أثينا ونبتون فى السيادة عليها واشتد النزاع بينهما فاحتكما إلى ملك ذلك الزمان وهو «أركثيوس» فقرر أن من يقدم له أحسن هدية تكون له السيادة على المدينة، وتقدم الإله نبتون فضرب الأرض بعصاه وأخرج منها حصاناً قويًا جميلًا، ثم تقدمت الإلهة أثينا ومست الأرض بعصاها فنبتت فى الحال شجرة زيتون، وقبل الملك هدية أثينا، لأن شجرة الزيتون ترمز إلى السلام، وهكذا أطلق على العاصمة اسم الإلهة أثينا إلهة الحكمة.

والشعب اليونانى يعيش حياته بالطول والعرض، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير، فهو يحب الحياة ويعمل ويعرق من أجل حياة أفضل دائمًا، ثم يقضى إجازته الأسبوعية والسنوية فى اللهو والمتعة والراحة والاسترخاء، يأكل ما لذ وطاب من الطعام ويعب من البيرة والنبيذ والمشروبات الروحية الأخرى، وهذا لا يمنعه من المواظبة على الصلاة والذهاب إلى الكنيسة، بل إن اليونانى إذا مر فى الطريق بكنيسة فإنه لابد أن ينحنى ويرسم علامة الصليب على صدره احترامًا وتبجيلا، ومعظم اليونانيات يحملن فى أعناقهن صليباً من الذهب أو الفضة مختلف الأشكال والأحجام وكذلك يفعل أيضًا بعض الشباب.

ولكن كيف يحقق الشعب اليونانى هذه المعادلة الصعبة من عمل متواصل وحب للحياة وتمتع بها وتدين يقرب من التصوف؟

هذا يحتاج لوقفة تأمل:

فى مجال العمل استطاع الشعب اليونانى أن يعوض سنوات الفقر والخراب والدمار التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، وبعد التخلص من الفتن الأهلية التى أعقبت الحرب، كان الاقتصاد إبان ذلك الوقت قد انهار، والمصانع دمرت وتحولت القصور إلى أكوام من التراب، وتدفق الفلاحون على المدن تاركين الأراضى الزراعية للخراب، وانتشرت البطالة حتى وصلت الأزمة فى سنة ١٩٤٩ إلى أسوأ حال فى تاريخها.. ولم يستسلم الشعب اليونانى أمام هذا الخراب والدمار بل هزم اليأس وقام بجهود جبارة لتعويض ما فاته وعمل بجد مؤمنًا بقدراته وبلاده، وبدأ التصنيع حتى وصل فى السنوات ما بين ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥ إلى زيادة إنتاجية بنسبة ١٧٪ مما جعل اليونان تصل إلى مستوى التنمية العالمية، وهذا بفضل الجهود المخلصة للمواطنين فى العمل بالإضافة إلى المعونة الأمريكية والتنمية والإنشاء والادخار مما أعطى فرصًا نادرة لتمويل الصناعات ووسائل الإنتاج، واليوم ترتبط اليونان بعلاقات تجارية مع العالم كله، وبخاصة مع العالم العربى ومصر، وتصدر إنتاجها الممتاز إلى كل بقاع العالم مثل سيارات النقل والثلاجات ووقود الطائرات واسطوانات التسجيل والقضبان الحديدية والكوابل والأسلاك والأسمنت والمضادات الحيوية والزيتون والأرز والقمح والزيت وعلب الصلصة وأوراق النظافة وغيرها.

وقد استطاعت اليونان أخيرًا وبعد مفاوضات استمرت ١٨ سنة أن تصبح العضو العاشر فى السوق الأوروبية المشتركة فى يناير سنة ١٩٨١.

ولأن الشعب اليونانى يعمل ويجد فإنه يشعر أن من حقه التمتع بحياته وينتهز فرص الأعياد والمناسبات المختلفة لينكب على متع الحياة يغترف منها ما شاء أن يغترف من أنواعها المختلفة المتباينة، ولم يكتف بالأعياد الدينية بل جدد أعيادًا جديدة تزيد من متعته وحبه للحياة مثل عيد النبيذ الذى ينفرد به شعب اليونان دون شعوب الدنيا، وفى هذا العيد توضع براميل ضخمة مليئة بأجود أنواع الأنبذة فى إحدى الحدائق، ويستطيع أى مواطن أن يشرب ويعب كما يريد نظير أجر رمزى لدخول الحديقة، وحتى تزداد المتعة فإن هذا العيد تطول مدته إلى شهرين تقريبًا.. يوليو وأغسطس.. والانسان دائمًا لا يستطيع أن ينسى أو يهمل تاريخه وتراثه الحضارى والثقافى والدينى، ولذلك فإن عيد النبيذ هذا يرجع إلى التراث الدينى اليونانى القديم، إذ تحكى لنا الأساطير أن هناك إلٰهاً للخمر كان ضمن آلهة اليونان القدماء هو الإلٰه «ديونسيوس» الذى اشتهر بحب الخمر والتمتع والخلاعة، وبعد أن اعتنق اليونانيون المسيحية لم ينسو آلهتهم القديمة فجعلوا للنبيذ عيدًا لا يتعارض مع دينهم الجديد ويخلد فى نفس الوقت تراثهم القديم.

وفى عطلة نهاية الأسبوع أو العطلة الصيفية أو فى الأعياد يهرع الناس إلى الشواطئ والجزر حيث جمال الطبيعة، أو ينتشرون فى أماكن اللهو والمراقص والمطاعم والبارات يأكلون ويشربون ويتمتعون بحياتهم بوسائلهم المختلفة.

وتكتمل المعادلة الصعبة بالتدين الكامل، بجانب العمل الجاد المتواصل، والانكباب على متع الحياة، فاليونانيون متدينون جدًّا، والاحتفالات الدينية لا تمارس داخل الكنائس وحسب، بل تخرج المواكب فى أعياد الميلاد والجمعة العظيمة وعيد القيامة إلى الشوارع مع الكهنة ورجال الدين بملابس الصلاة والأيقونات والشموع المضاءة وصور القديسين فى زفة طويلة تجوب أرجاء المدن ويلتف حولها الشعب مهللاً بالعيد فرحًا به.

والمذهب المسيحى الأرثوذكسى هو السائد فى اليونان، وتفرض قوانين البلاد على المواطنين عدم الزواج إلا من نفس الدين والمذهب سواء للرجال أو النساء، وعلى هذا لا يستطيع أى أجنبى الزواج بيونانية إلا إذا كان مسيحيًّا مثلها، أو إذا اعتنق المسيحية لو كان يدين بدين آخر، وفى هذه الحال ترسل الحكومة اليونانية تأشيرة إلى حكومته تعرفها بأن مواطنها هذا قد غير دينه فى اليونان، وقد وصلت قوة الكنيسة فى اليونان إلى أن هدد أحد كبار رجال الدين رئيس الجمهورية (قسطنطين تساتسوس) بحرمانه من الكنيسة إذا اجترأ ووقع على قانون يبيح الإجهاض

بعد أن وافق عليه البرلمان، فتعاليم الكنيسة لا تبيح الإجهاض، ويجب على رئيس الجمهورية احترامها والأخذ بها.

عروس يونانية بالزى الشعبى

(٢)

هناك أماكن أثرية سياحية فى كل دولة من دول العالم يحرص السائح على زيارتها ومشاهدتها ليقف على عاداتها وتقاليدها، ويرى عظمة الإنسان على مر الزمان فى كل مكان، فلاشك أن تاريخ الإنسانية وتراثها الحضارى ملك لكل إنسان.. ففى مصر مثلاً هناك الأهرام الشامخة فى الجيزة، والآثار المتعددة فى الأقصر وأسوان، ومصر القديمة والمتحف المصرى.. وفى باريس هناك برج إيفل، ومتحف اللوفر، الذى يحوى روائع أعمال الفنانين العالميين التشكيليين.. وفى روما يوجد الفاتيكان عاصمة الديانة الكاثوليكية فى العالم، وكنيسة القديس بطرس التى تحفل بأعمال العملاقين فى

الفن التشكيلى «رافاييل»، «مايكل أنجلو» بجانب الكـوليزيـوم.. وفى لندن يوجد متحف الشمع وحدائق الهايدبارك.. وفى الـولايات المتحدة الأمريكية يوجد متحف المتروبوليتان وتمثال الحرية.. أما فى اليونان فهناك الأكروبوليس وهى كلمة يونانية تتكون من مقطعين معناهما المدينة المرتفعة، أى القلعة وفى كل بلد من بـلاد اليونـان أكروبول خاص بها ولكنْ أعـظمها جميعًـا أكروبـول أثينا الـذى شيد على أعلى قمة فى العاصمة وهى قمـة «أوليمبوس» التى يبلغ ارتفاعها ١٥٦ مترًا فوق سطح البحر، وقـد أقيمت قلعة أثينـا أو أكروبولها سنة ٤٣٨ قبل ميلاد السيد المسيح، وهو العصر الذهبى للعمارة الإغريقية، ومساحتهـا كبيرة وبهـا عدة مبـان رائعة أهمهـا متحف الأكروبول، ومعبد البارثينون الذى استغـرق بناؤه ونقشـه خمسـة عشر عـامًـا، وتمثـال الإلٰهـة «أثينـا» المصنـوع من العـاج والذهب.

كـان طبيعيًّا أن أزور الأكـروبوليس أو قلعـة أثينـا، فصعـدت السلم الكبير والطويل فى نفس الوقت، وعلى باب الدخول قرأت التعليـمات التى كتبت عـلى حجـر كبـير بـاللغتـين اليـونـانيـة والإنجليزية:

* ممنوع الاقتراب أو لمس الآثار.
* ممنوع اصطحاب الحيوانات.

* ممنـــوع الـــدخـــول بـــأطعمـــة أو تنـــاول السـاندوتشات.

وهـذه التعليمات تـوجد عـلى أبواب كـل متاحف العـالم، لكن الطريف أن هناك تعليمة جديدة على باب الأكروبول هى.. ممنوع أن تغنى أو ترفع صوتك فى الداخل.

تمثال من معبد دلفى الذى خرجت منه النبوءة التى تقول أن سقراط أحكم رجـل فى أثينا وقد أخذ سقراط يبحث عن هذه الحقيقة.. لماذا هو أحكم إنسان فى أثينـا؟ وأخيرا عـرف السبب.. فهو أحكم من فى أثينا لأنه عرف عن نفسه أنه لا يعرف شيئا

ابتسمت وأنا أقرأ هذه التعليمة بالذات، فلاحظ مرافقى وقـال لى.. أنت تعلم أن المدينة كانت معبدًا منذ آلاف السنين لذلك لابد أن يسود الهدوء فيها حتى يشعر الزائر بجلال وأهمية المكان.

وهناك رسم دخول أو تعريفة لدخول الأكـروبول، ثم تعـريفة أخرى لزيارة المتحف داخل القلعة وهو مـا يعادل جنيهـاً مصريًـا

واحدًا، ومن فوق الأكروبول رأيت «بانوراما» اى منظرًا كليًّا لمدينة أثينا النظيفة رائعة الجمال عاصمة الفكر الفلسفى والدرامى القديم، وشعرت كأننى أتطلع من نافذة طائرة لا من أعلى مكان فى المدينة، ثم دلفت إلى داخل المتحف الذى يقع على مساحة صغيرة فى الجانب الأيمن من الأكروبول، وتجولت سريعًا داخل قاعاته، وشاهدت مجموعة من الآثار اليونانية القديمة، والتماثيل التى ترك الزمن عليها بصمته لكنه لم يتركها كاملة، والعجيب حقًّا أن المتحف اليونانى الرومانى فى مدينة الإسكندرية عندنا يحوى آثارا وتماثيل يونانية أغنى بكثير من التى يحويها متحف الأكروبول فى أثينا، ومع ذلك فرسم دخول المتحف عندنا لا يساوى عشر ما يدفعه الزائر لمتحف الأكروبول.

وسألت مرافقى عن سجن صديقى سقراط، أبى الفلسفة الذى استشهد فداء لمبادئه وتعاليمه عام ٣٩٩ قبل ميلاد السيد المسيح، ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجه مرافقى ثم قال: صديقك سقراط! قلت: نعم، لقد سمعت أن سجنه يقع هنا فى الأكروبول.. قال: حقيقة إن السجن يوجد فى هذه المنطقة.. وسنبحث عنه، لكن ما هى حكاية صداقتك بسقراط؟

ابتسمت قائلاً إننى من المعجبين جدًّا بأبى الفلسفة، وقد قرأت كثيرًا عنه وله، وتأثرت بتعاليمه ومبادئه، وأعجبت بطريقته فى محاورة الناس التى تعتمد على «التهكم والتوليد» فكان يوجه

أسئلة إلى الناس ثم يحاورهم حتى يصلوا إلى الإجابة بأنفسهم فيكونوا مقتنعين، والأهم من كل هذا أن سقراط كان متواضعًا متباسطًا مع الناس على رغم صفاء ذهنه وعمق تفكيره وحبه للحكمة، من هنا ارتبطت بصداقة معه وأحببته واعتبرته صديقًا عزيزًا وأستاذًا جليلًا بالرغم من اختلاف العصور ومرور آلاف السنين.

إذن هيا بنا نبحث عن سجن صديقك سقراط.

وأخذنا نبحث هنا وهناك حول الأكروبول فلم نجد السجن واضطر المرافق أن يسأل أحد المارة فكانت إجابته تهكمًا وسخرية منا فقال: أنت تسألنى عن سقراط مالى أنا وسقراط، هل تعلم متى عاش هذا الرجل فى اليونان؟ وسألنا آخرين ولكن أحدًا لم يدلنا على المكان.

ودهشت وتأسفت وتعجبت كيف أن سقراط وهو إحدى العلامات البارزة فى الفلسفة العالمية، وأول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أى حول التفكير الفلسفى من البحث فى مجال «الميتافيزيقا» ما وراء الطبيعة إلى التفكير والبحث فى الإنسان وحريته والقيم الضرورية فى حياته مثل الخير والحق والجمال والعدل والشرف، كيف لا يهتم شعب اليونان وحكومته بذكرى هذا المفكر الفحل؟ وببيته وسجنه وقبره؟ وأحسست بالمأساة.

جزء من الأكروبول «قلعة أثينا»

وصاح مرافقى قائلاً: لقد وجدته.. إنه هناك، هذه اللافتة تدل على ذلك، وذهبنا إلى المكان فرأيت حجرة صغيرة ضيقة ليس لها باب وإنما بعض أعمدة حديدية تغلقها، وقلت.. ليس من المعقول أن تكون هذه الحجرة سجن سقراط، لأن تاريخ أبى الفلسفة الذى رواه لنا أفلاطون فى محاوراته الرائعة البارعة يقول إن سقراط كان يجتمع فى سجنه مع تلاميذه ومحبيه ويتناقش معهم وهم

يتمشـون جيئة وذهـابا.. وهـذا لا يتفق مع مسـاحـة المكـان التى لا تسمح لأكثر من جلوس اثنين أو ثلاثة أشخاص.

قال الصديق المرافق مازحًا:

يبدو أنك صديق صدوق لسقـراط وتعرف عنـه كل شىء حتى دقائق حياته.. على العموم ربما يكون هذا المكان، أو قريبًـا منه أو أن يكـون هذا جـزءًا من السجن لأن اللافتـات المعلقـة لا تثبت شيئاً للأسف.

والأكروبول الآن يعانى من خطر التصدع والشيخوخة، ولذلك تجرى عمليات الترميم هنا وهناك، وطبيعى أن يطلب منـا الحراس الابتعاد عن المعابد التى يحتمل أن تنهار فى أية لحـظة، والتى تغلفها أسيـاخ من الحديـد لتحفظهـا حتى يتم تـرميمهـا، نفس عمليـات الـترميم التى شهدتهـا معابـد فيلة وأبو سمبـل بأسـوان ومـدينـة أبو سمبل، والتى احتفلنا بانتهائها عالميًّا سنة ١٩٨٠.

أمـا عن أسباب التصـدع والعطب الـذى أصاب الأكـروبـول فهى كثـيرة: منها الـزمن وعوامـل التعـريـة، والصـواعق وكـثرة الدخان النـاتج عن عـوادم المصانـع والسيارات وأجهـزة التدفئـة المنتشـرة فى كل بيـوت أثينا والتى تعتمـد على الفحم وليس عـلى الكهـربـاء، ومن أجـل إنقـاذ الأكـروبـول الـذى يحفظ حضـارة الإنسـان القديم أعلن «أحمـد وامبو» مـدير عـام اليونسكـو عام ١٩٧٧ أن أكروبول أثينا يواجه لأول مرة فى تاريخه ومنـذ ٢٤٠٠

سنة خطر الإنهيار وأن التلوث الجوى المحيط بالعاصمة اليونانية بدأ يتفاعل مع رخام التماثيل وصخور المعابد ليحولها على مدى سنوات قليلة إلى تراب، وطلب مدير عام اليونسكو من الدول الأعضاء فى المنظمة وعددها ١٤١ دولة ومن هيئات العالم وجامعاته والمهتمين بالآثار والفنون المساهمة فى إنقاذ الأكروبول حيث أنه عمل يهم الإنسان أينما كان، وبدأت فعلاً الترميمات التى شاهدتها هناك والتى ما زالت تحتاج إلى سنوات من العمل حتى يتم الإنقاذ الكامل، ذلك أن هناك عمليات دقيقة يحتاج إليها أحياناً كل حجر بما عليه من نقوش تعبر بدقة عن حياة القدماء وحضارتهم.

إن الذى يجرى فى أثينا الآن لترميم المعابد وعلاج الآثار وحماية الأكروبول لدليل قاطع على عظمة الإنسان عندما يجد جزءًا من تراثه يكاد يضمحل فإنه لا يسمح بذلك، ويسارع من كل مكان وكل بلد على اختلاف الأجناس واللغات من أجل المحافظة على تراث الإنسانية فهو ملك للجميع.